المحاضرة الأولى في صناعة المعاجم

أ/ قطاف سارة

إنّ البحث في الميدان المعجمي هو بحث في مدونة اللغة عموما، إذ اللغة رُكام هائل من الألفاظ المكوِّنة للمنطوق المركب منها شعرا ونثرا، والموظف عبر الأحقاب الزمنية، لتحقيق الغاية التواصلية، وهي الإبلاغ المفترض بين طرفي الخطاب(المرسل والمتلقي)، مما يكون ذا علاقة بالعامل الأناسي الأنثربولوجي، باعتبار أنّ أي نموذج لغوي ذا صلة بالثقافة الغالبة للمجتمع، وذا علاقة بالعامل الجغرافي، مما تجلى عند العرب في رقعة الفصاحة[1].

وقد أشار د. أحمد حساني إلى اعتبار المعاصرين اللسان راسبا اجتماعيا لممارسة الكلام، وهو ما يربط اللسان بالمجتمع ربطا حصريا أكيدا[2].

والمعجم العربي هو الصدى المتعاقب، والكمّ المتراكم، من الموروث المنقول، عبر الأحقاب الزمنية المتلاحقة، مما يقتضيه ظرف التخاطب، وإلحاح التواصل بين الأفراد. فاللغة–بتعبير ابن جني–أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم. وهي وظيفة اللغة عند المعاصرين كذلك: التعبير ونقل الفكر في إطار البيئة اللغوية[3].

يلخص المبروك زيد الخير أهم الاعتبارات العامة التي تفيدنا بها دراسة المعجم في قوله:

(...وإنّ ما يهمنا في دراسة المعجم اللغوي هو المحصول التراثي المعجمي، ومسائله في القديم والحديث، وما يترتب على دراسة المعجم، من قضايا تتعلق بتطور المعجم، وبنيته الوظيفية، والنظريات المعجمية المستخلصة، على مستوى التنظير والتطبيق، وما ينجز من ذلك من توظيف إيجابي للمعجم، يعتمد على التحليل والتعليل، ويؤهل المعجم لاستيعاب الخطاب العربي، ويربط المعجم اللغوي عند العرب، بالمعاجم في سائر الثقافات، وهذا التلقي اللغوي المعجمي يفضي إلى دراسات لغوية متنامية عبر الزمان، ومثرية للمحصول اللغوي الذي تملكه الأمة، وترثه الأجيال في صورة علمية وعملية، تربط المعجم في رحلته التاريخية، بالمعجم في نظرياته التحليلية، ووظائفه اللسانية، واستيعابه الحضاري، لمناخ التطور والتفتح، على العلم الحديث، ومخترعات العصر، وآليات البحث)[4].

ما يهمنا إذا، ههنا، معرفة طريقة تفكير مستعملي المعجم، ومعرفة المفاهيم والمعاني التي تدور في فلك ثقافتهم، وتتصل بعيشهم ومجتمعهم، وكذلك بالدرجة نفسها، التعرف على منهج عرض المواد وترتيبها، وكذا منهج مصادر المادة ومراجعها وشواهدها، ومنهج قبول مواد وترك أخرى؛ أي الانتقاء. وما سوى ذلك من مسائل.

---

[1] المبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدرس اللساني الحديث، ص 17، 18.

[2] المرجع نفسه، ص 18.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص 20.

[4] المرجع نفسه، ص 25، 26.

التأليف المعجمي عند العرب

أخّرت الثقافة الشفوية عند العرب التأليف المعجمي، فلم يعرف العرب المعاجم إلا في العصر المتأخر، وذلك في صورتها المتكاملة المستقلة، نظرا لمعطيات موضوعية، تتعلق بالبيئة ونمط الحياة، فلم يكن نمط العيش العربي مسعفا للكتابة، ولا متيحا للتدوين، ولا منفسحا للدراسة والموازنة والتنظيم العلمي[1].

ومعلوم أنّ الموروث اللغوي في البيئة الجاهلية المؤسسة للعطاء النامي في هذا المضمار كان قائما على التلقي الشفوي المرتكز على الذاكرة، لأنّ العرب في غالبهم لم يكونوا يقرؤون أو يكتبون، بل كان القراء والكَتَبَة نادرين[2].

هذه الحيثيات دفعت بمشكلة توثيق النصوص إلى الظهور، حيث بدت شكوك في وثوق تلك النصوص وصحتها، فضلا عن التشكيك في الشعر الجاهلي (تنظر آراء المشككين؛ المستشرق مارجليوث، وطه حسين في كتابه "في الشعر الجاهلي". وكذا الرأي النقيض ناصر الدين الأسد، وكذا آراء المستشرقين، أمثال: نولدكه، جويدي، نالينو، فيشر، هارتمان، بروكلمان وغيرهم).

وقد أشار ابن سلام الجمحي إلى أنّ ثقافة العرب كانت الشعر أساسا، فهو ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون[3].

أما علاقة اللهجة باللغة، فهي علاقة الخاص بالعام، لأنّ بيئة اللهجة كما يؤكد إبراهيم أنيس هي جزء من بيئة أشمل وأوسع، وهي تضمّ عدة لهجات، تشترك في مجموعة من الظواهر اللغوية. وتنضوي جميعا تحت مسمى: اللغة. يقول إبراهيم أنيس: (وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية والعادات الكلامية، والتي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات)[4].

وغالب اللغويين العرب يعتبرون كل اللهجات العربية المختلفة لغات، وكلها حجة، كما أشار لذلك ابن جني في "الخصائص"[5].

ودراسة اللهجات ميدان محفوف بالمخاطر والمحاذير والصعوبات، لسعة الموروث، وتناثر مضامينه في كتب اللغويين وغيرها، وهم عادةً يذكرون اللفظ الوارد في لهجة من اللهجات، على أنه لغة تحديد أو تقييد[6].

---

[1] المرجع السابق، ص 18.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، 24/1.

[4] إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص16.

[5] ابن جني، الخصائص، 33/1.

[6] المبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدرس اللساني الحديث، ص 20.

علاقة القرآن الكريم ببناء المعجم

اللغة وعاء الفكر، ومحددة معالمه وملامحه، والمؤثرة بفاعلية وقوة في حاضره ومستقبله، كانت ولا تزال أداة التعبير عن الذات الحضارية الموغلة في التاريخ، بما تحمله من آداب، وما تشتمل عليه من علوم، وما تحويه من فنون[1].

وقد أكسبها –اللغة– ارتباطها بالقرآن خلودا وجاذبية وقوة، تفرّدت بها عن سائر اللغات، ففيه ظهرت أرقى صورة للغة، وأدق وضعية للأداء صوتا وتراكيبا ومعنى.

وقد كانت طرائق قراء القرآن في النقل بالرواية والدراية أصح طرق نقل اللغات، تواترا، واعتمادا على الأداء المضبوط، والسماع الذوقي، والتلقي المباشر.

ومعلوم أنّ الدرس المعجمي في صورته التأسيسية بدأ مع تطلّب فهم القرآن، ودلالاته المُعجِزة للبشرية جمعاء. واهتمام العرب باللغة بدأ باهتمامهم بهذا النص الكريم، الذي ضَمِنَ الله حِفظَه، وثبات نصه الأصلي، بمنأى عن التحريف الذي طال الكتب السماوية السابقة.

وقد ظهرت بعض الحملات الشرسة المسعورة ضد القرآن والعربية، إلا أن الله قيّض لهذا الكتاب، وللغته علماء في قمة الموضوعية والعقلانية، والقدرة على استخدام آليات التحليل العلمي، والإقناع المنطقي، فكشفوا عن خصائص العربية ومميزاتها، محاولين تأكيد إعجاز القرآن وصدقه وعالميته، وصلاحيته لكل زمان ومكان. وقد أرجع محمود عباس العقاد صمود العربية في وجه تلك الحملات والدسائس والضربات من معاول الهدم إلى كونها قوام فكرة، ومرتكز ثقافة وتاريخ، لا لغة كلام وكفى، إلى جانب كونها لغة إنسانية، حفظت تراث الانسان، شعرا ونثرا، وعلما وثقافة، وتاريخا وحضارة[2].

وللوصول إلى الغاية المرتجاة من فهم القرآن، دلالة ومضمونا وأحكاما، فقد اضطلع علماء العربية بجمع ثروتها اللفظية، التي تمثل المعجم العربي في صورتها الناضجة، وهي ثروة تراكمت عبر قرون من الزمان، وأبانت عن سعة العربية، ودقة اللسان، وصارت مفخرة علمية وتراثية للأمة، ومنطلقا علميا للدراسات النظرية والتطبيقية، والتي طوّرها فطاحلة اللغة، وأصحاب الرواية والمناهج، وأرباب النظريات والتحاليل، وهي قد بدأت رواية شفوية، ثم انتقلت إلى مرحلة الجمع والتدوين، ثم إلى مرحلة الدّرس والتقعيد[3].

---

[1] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 21، 22.

[3] المرجع نفسه، ص 22.

إنّ حركة التأليف المعجمي العربي إنما هي نتاج بيئة عربية خالصة. أمّا ما يشاع من احتمال التأثير الأجنبي فمستبعدٌ إلى حدّ كبير، بل ربما كان تأثير المعاجم العربية في غيرها من الحضارات المواكبة، هو الأقرب إلى طبيعة التأثر والتأثير، في زمان التأسيس لهذا العلم الرصين[1].

يقول هايوود:(ومن العدل أن نقول إنّ فترة النشاط المعجمي الكبير في الهند، كانت في القرن الثاني عشر، وهو وقت كان العرب فيه قد أنتجوا بعضا من معاجمهم العظيمة، والنظام المثالي لم يوجد مطلقا في معاجم الهنود)[2].

وؤكد تمام حسان أنّ أسبقية العرب في مجال المعاجم هي أسبقية عالمية، بدليل ما قاله هايوود، وما يذكره ويبر، الذي يفرق بين المعجم العربي وغيره من المعاجم السابقة أو المواكبة عند الأمم الأخرى، يقول: (المعجم العربي منذ نشأته كان يهدف إلى تسجيل المادة اللغوية، بطريقة منظمة، وهو بهذا يختلف عن كل المعاجم الأولى للأمم الأخرى، التي كان هدفها شرح الكلمات النادرة أو الصعبة)[3].

أما تأثير الهنود فلا يتعدى الترتيب الصوتي للحروف الهجائية، الذي توخاه الخليل بن أحمد الفراهيدي، في اعتبار الأعمق مخرجا، ومع ذلك فهو وإن احتملنا اطلاعه على الترتيب الهندي للأصوات، فإنه خالفه في تطبيقاته، التي تجلت بعبقرية وتفرّد، في معجمه "العين"، ناهيك عن اختلاف العرب ذاتهم في اجتهاداتهم في ترتيب الأصوات، وفي اعتمادهم الحروف الأبجدية، إذ أنّ ترتيب الخليل مختلف عن ترتيب سيبويه، وهما مختلفان عن ترتيب ابن جني، وهكذا[4].

والظاهر أيضا أنّ التأثير اليوناني على المعجم العربي لا أساس له من الصحة، وكذلك التأثير السرياني، على خلاف تأثير المنطق اليوناني على النحو العربي، والذي وقع فيه خلاف واسع، وكان محل جدل بين القائلين بتأثير منهج المنطق الأرسطي في النحو أو عدمه[5].

ناهيكَ عن التردد في إثبات الأثر السّرياني، الذي أشار إليه تمام حسان، مع الإقرار بتأثير السريان الأكيد، في استعارة العرب للأبجدية النبطية، ذلك أنّ الخط النبطي مشتقٌّ من الخط الآرامي، والتشابه بين الخط الآرامي والخط العربي واضح، وتحديدا في الخط الكوفي، بالإضافة إلى حركات الإعراب التي اقتبسها أبو الأسود الدؤلي (ت 69 هـ) عن السريان.

---

1 المرجع السابق، ص 22.

2 المرجع نفسه، ص 22، 23.

3 المرجع نفسه، ص 23.

4 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

5 المرجع نفسه، ص 23، 24. وأثر المنطق يظهر في اجتهادات نحويين دون آخرين، نجده عند علي الفارسي صاحب الأقيسة، وعند الرماني كذلك. للاستزادة، ينظر: النزعة المنطقية في النحو العربي لعبد الفتاح الدجني، والنحو العربي وعلاقته بالمنطق لمحمود محمد علي.

وما قيل عن تأثير كل تلك اللغات قيل كذلك عن التأثير العبري، والصيني، وغير ذلك، مما يدعيه بعض الباحثين الذي يريدون تجريد البحث العربي، وتعرية العقل العربي، من كل المزايا في الابتكار والتميّز، وهي دعاوى تكون في الغالب غير مؤسَّسَة من الناحية العلمية، ذلك أنّ أي ادعاء لا يقوم على أدلة علمية راسخة لا يؤبه به في مجال الأحكام، وفي التقارير الخاصة بتاريخ العلوم، ومظاهر التأثر والتأثير[1].

تأسيس المعجم: ظروفه وحيثياته

ظهر فن تأليف المعاجم أو "المعجمة"[2] بالتوازي مع ظهور النحو العربي، فقد ذكر عبد الرحمن بن خلدون(808هـ) في مقدمته أنّ اللغة العربية تعرضت لنوعين من الفساد، أولهما في اللفظ، بالخطأ في النطق، والثاني معنى اللفظ في غير مجاله المعنوي، وقد عولجَ الأول بالنحو، وعولجَ الثاني بظهور المعاجم[3].

والظاهر أنّ الحاجة لذلك كانت ماسّة وأكيدة، وأنّ الإسلام حينما انتشر في بقاع الأرض، انفتحَ بالمجتمع العربي على أمم أخرى، فكان لا بد أن تبرز الحاجة إلى دراسة منظمة للغة العربية، لكي يستطيع المسلمون كلهم بمختلف أصولهم قراءة القرآن قراءة صحيحة، وأن يفهموا نصوصه البليغة فهما سليما، بعيدا عن أخطاء اللسان، وتصحيفات القول، وتحريفات الفهم. إذ لا يمكن بحال التهاون في كل ذلك، لأنه مرتبط بالعقيدة، ومتصل بتشريع العمل والمعاملات[4].

فالعربية هي مفتاح الولوج إلى أسرار النص القرآني ومعانيه، فلم يتمكن الأعاجم من الحصول على ملكة الفهم وسليقة تذوق بيان القران المعجز إلا بتعلم العربية والغوص في معانيها الرائقة، الظاهرة والمضمرة. فكان ذلك مدعاةً إلى التسابق في تعلم العربية والاندماج في الأمة الإسلامية، فالدين واحد، والقرآن موحَّد.

وقد كرّس العلماء جهودهم فقاموا بملاحظة الظواهر اللغوية في اللغة العربية، على مختلف مستوياتها، ملاحظة علمية، كما قاموا بجمع موادها وتدوينها، في مؤلفات أبيدَ منها الكثير وضاعَ.

والمجتمع الذي يحفظ اللسان، تأدية وضبطا، وتصورا لغايات ذلك وأهدافه، هو مجتمعٌ واعٍ بأهمية اللغة في الحفاظ على الكيان العام، وضمان الخصوصية والتميز.

هذا ولم يكن ميلاد المعجم سهلا ميسورا، بل كان نتاج معاناة ومخاض، في ظل التحول الجذري للمجتمع العربي، من محدودية التواجد في شبه الجزيرة العربية، حيث البداوة والقساوة، وانفلات القوانين، وطغيان الأنانية، وعصبية القبيلة، إلى عالم مدني حضاري، يجمع فيه الناس على كلمة سواء. ولا يأبه للخصوصية العرقية، ولا للفروق الطبقية، على

1 المبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدرس اللساني الحديث، ص 23.

2 يعود هذا المصطلح لمحمد صالح الجرح، في مقال له منشور في مجلة مجمع اللغة العربية، بعنوان: " النشاط المعجمي العربي أصيل أم دخيل. ويسمها بعض الباحثين بصناعة المعجم، أو التصنيف المعجمي، أو التدوين المعجمي، أو بناء المعجم. المرجع نفسه، ص 29(الهامش).

3 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4 المرجع نفسه، ص 29 ،30.

مستوى اللون، أو العزوة القبلية، بل يجمع الناس على عقيدة واحدة، لعبادة إله واحد، في ظل العدالة الاجتماعية، والمساواة المعنوية والمادية[1].

أمّا عن انعدام التأليف المعجمي في العصر الجاهلي فذلك راجع إلى طبيعة الحياة البدوية المضطربة، والتي يغلب عليها الترحال، ولذلك فهي تؤثر الشفوي على الكتابي، وتنقل الموروث العلمي مشافهة، واعتمادا على الذاكرة الفردية والجماعية، ناهيكَ عن انتشار الأمية، ووجود شريحة واسعة من المجتمع العربي، لا تكتب ولا تحسِب. إلا أنّ العربي أتقن العربية بالبديهة والاستعمال، وبالعطاء المرتجل، والتواصل التلقائي، فكان الكلام، وتحبير الخطب، وإنجاز القصائد والمقاطع، والحكم والأمثال، نتاجا للارتجال الفوري.

يقول د. عبد اللطيف الصوفي:« إنه لا شكَّ في معرفة عرب الجاهلية للكتابة والتدوين، لا سيما في الحواضر، كشمال الجزيرة العربية وجنوبها، حيث تتوفر الأحجار والصخور، التي استخدموها كوسائل سهّلت لهم عملية التدوين، فضلا عن عظام أكتاف الابل، والخشب، والأدم، واللّخاف، والعسب، والرّقاع»[2].

[الأدم(الجلد)- اللّخاف(حجرٌ أَبيضُ عريض رقيق)-العسب(جريد النخل)- الرقاع (القطعة من الورق أو الجلد يكتب عليها)- الرَقِ: وردت في قول طرفة:

كسطور الرَقِ رقشه ... بالضحى مرقش يشمه

وقول معقل بن خويلد الهذلي: وإني كما قال مملي الكتا ... ب في الرَقِ إذ خطه]

وقد كان التدوين عند العرب متداولا وموجودا، لكنه اقتصر على الصكوك والعهود، والأحلاف والمواثيق، ويظهر أنّ حلف الفضول، ومعاهدات القبائل لإيقاف الحروب، ومكاتبة العبيد لتحريرهم مقابل مال معلوم، أو خدمة طويلة، يستوفي بها العبد إبراء ذمته تجاه سيده، كانت جميعها تتم كتابة، وقد أقرها الإسلام، وشرّع بها لكتابة الدَّين في آخر سورة البقرة.

فالكتابة كانت مكرسة للخدمات الاجتماعية وتزجية الحقوق، أما الإنتاج الأدبي فكتابته كانت نادرة، لتفشي الأمية حتى في الشعراء. هذا ولم يكن في مكة عند مجيء الإسلام سوى سبعة عشر كاتبا.

وعموما، كانت الثروة اللغوية خزانا ثريا، وموردا متدفقا من التراث الفصيح، فقد كان العرب يعرفون أوقات السنة وفصولها، من خلال معرفتهم بالنجوم والأنواء، ويعرفون منازل الكواكب، وتعاقب الفصول، ويعرفون خصائص الأرض من جدب وخصوبة، ويسمون الأعشاب والنباتات، وخصائصها ومنافعها، كما يعرفون الحيوانات البرية والمستأنسة، وقد وصفوها شكلا وطبعا، وشراسة وأنسا، وحدّدوا علافتها ببعضها، وعلاقتها بالإنسان، فجاء التراث زاخرا غنيا.

[1] المرجع السابق، ص 30.

[2] مصادر اللغة في المكتبة العربية، ص15.

وفي مجال صناعة المعاجم يرى د/أحمد عبد الغفور عطار أنّ الآشوريين عرفوا المعاجم قبل العرب بأكثر من عشرة قرون. فقد قاموا وأهل بابل بوضع قواميس للرموز، التي كانوا يكتبون بها، بسبب أنهم كانوا يكتبون بالصور عوض الحروف[1].[موجودة في المكتبة الآشورية، في بلدة نيانيفيا، وهي مصدر رصين للتعرف على ثقافة ما بين النهرين]

ويشير د/ أحمد مختار عمر في كتابه (البحث اللغوي عند العرب) إلى أن الصينيين أسبق من العرب في الميدان المعجمي، وهو رأي المستشرق فيشر، إلى أنّ العرب كانوا أسبق منهم في بناء المعجم، يقول: (إذا استثنينا الصين، لا يوجد شعب آخر يحق له الافتخار بوفرة كتب علوم لغته، وبشعوره المبكّر بحاجته إلى تنسيق مفرداتها، بحسب أصول وقواعد، غير العرب)[2].

ويذهب غيره إلى أنّ اليونان أسبق في التأليف المعجمي، مستدلا بمعجم يوليوسبولكس، ومعجم هلاديوس في القرن الرابع الميلادي[3]. فما أنجزوه يعد نواة للمعاجم الأوروبية الحديثة، ومن ذلك ما ألفه أرسطوفانس البيزنطي، على شكل قائمة للكلمات اليونانية الغريبة والصعبة، محاولا تفسيرها. كما ظهرت عندهم معاجم أخرى في معاني الألفاظ وأخرى في اشتقاقاتها[4].

أمّا المعاجم عند الهنود فهي موغلة في القدم، ذلك لأنها ارتبطت بنصوصهم المقدسة. وأقدمها تأليفا معجم الأماراكاكا ف القرن الخامس الميلادي، وهو مرتب حسب المعاني لا الألفاظ. وفيه تشابه مع معجم العين للفراهيدي، ولكن ليس هناك دليل قاطع على انتقال نمط الهنود إلى العرب، وإن ادعى البعض ذلك. [كلاهما بدأ من الحلق، وصولا إلى الشفتين].

على أن تفرد الفراهيدي ظاهر، وعبقريته بارزة، إذ المعاجم الهندية، حتى القرن العاشر الميلادي، لم تتبع ترتيبا معينا، يسهل به الرجوع إليها، فهي بذلك تفتقد أهم عنصر من عناصر المعاجم، وهو الترتيب، فضلا عن افتقادها عنصرا آخر وهو الشمول[5].

أما المعجم في اللغة العبرية فهو موصول بالدراسات اللغوية في هذه اللغة، وهي دراسات لم تزدهر إلا بعد ظهور الإسلام بقرون عديدة، وأول من ألف معجما في تاريخ اللغة العبرية، هو سعيد بن يوسف الفيومي(ت942هـ)[6].

وهناك إشارة عند التيجني بن عيسى إلى وجود تقاطع بين المعجمين العربي والعبري، ذلك أنّ عددا معتبرا من الألفاظ العبرية ذات أصول عربية، وذلك من حيث بنيتها وصيغتها ومادتها، نظرا للتلازم التاريخي والجغرافي بين اللغتين[7].

---

[1] المبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدرس اللساني الحديث، ص 35.

[2] أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص57.

[3] القلعي، الألمعية في الدراسات المعجمية، ص10.

[4] المبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدرس اللساني الحديث، ص 39.

[5] بتصرف عن: القلعي، الألمعية في الدراسات المعجمية، ص11.

[6] أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص50-52.

[7] ينظر كتابه: تأثير اللغة العربية في اللغة العبرية، ص135.

المناخ الثقافي واللغوي المُمَهّد لظهور المعجم العربي

لم يكن التأليف المعجمي عند العرب بارزا في صورته التصنيفية الحديثة، بهذا التنظيم والترتيب، الذي برز في القرون اللاحقة، لأن العرب في الجاهلية لم يدونوا الحضارة، ولا عمدوا إلى كتابة الإنتاج الفكري والإبداعي، باعتبار أنّ الذاكرة كانت قوية، وأنّ الاعتماد على المشافهة والنقل بالرواية المباشرة، فكان ذلك هو النمط الغالب في التعامل مع الموروث المنقول من جيل لآخر[1].

ولغزارة ما أنتجه العقل العربي صَعُب الإلمام بالتراث العربي الزاخر الواسع الآفاق، المتراكم بعضه فوق بعض، فاستحالت، والحال هذه، الإحاطة بأغلبه، فكيف بكله. وحتى وإن برزت محاولات من قِبل المجامع اللغوية والهيئات والمجالس والمنتديات في شتى أنحاء العالم العربي، إلا أنّ عظم التراث وزخمه، حال دون الانتفاع به، والاستفادة منه بكليته، وخاصة وأنّ التراث ما يزال مطمورا، وما نشر منه بشتى الوسائل والكيفيات، ليس هو الأفضل بالضرورة، إذ ما تزال منه كنوز نفيسة في رفوف المكتبات حبيسةً، والمطلع على كثافة المخطوطات، يدرك ضخامة الموروث وتراكمه، ويدرك مقابل ذلك ما ينتظر الباحثين من مسؤولية في هذا المضمار الحضاري المهم[2].

لقد بدأت الحفاوة بالتراث الجاهلي تلقائية، وكانت المشافهة تُغنِي عن التدوين، غير أنّ التدوين كان أيضا موازيا لعملية التلقي الشفوي، إذ هناك معلومات مؤكدة تقول بأن دواوين الشعراء كانت نروى قبل الإسلام رواية شفوية، مع وجودها مكتوبة مدونّة[3]، في صحف ورسائل، مما هو متاح في ذلك العصر، من جلد أو عظم أو حجر، مما ذكرنا سابقا، كما هو الحال مع القرآن في أول تدوينه في عهد النبي صلى الله عليه وسلّم.

وقد أورد د/المراغي في كتابه (دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث) أنّ بداية التدوين كانت عند القدامى مكرّسَة لحفظ الأنساب، وذِكر أخبار القدامى وتاريخهم[4].

ونشير إلى أنّ الرواية الشفوية هي المرتكز في عملية لملمة التراث، والتهيء لتصنيفه. وللرواية خصائص ينبغي معرفتها لمن أراد التصدي للدراسات اللغوية والتراثية، وكذلك لمن أراد أن يصل إلى حكم عادلٍ في قضية أصالة الشعر العربي القديم، وهي قضية جوهرية وشائكة[5].

---

[1] المبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدرس اللساني الحديث، ص 42.

[2] بتصرف عن: المرجع نفسه، ص 44، 45.

[3] ينظر: سركين فؤاد، تاريخ التراث العربي، 397/1. والمبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدرس اللساني الحديث، ص 45.

[4] المرجع نفسه، ص 46.

[5] ينظر: المرجع السابق، ص 46، وسركين فؤاد، تاريخ التراث العربي، 81/1، والمراغي، دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث، ص43.

وبقد تزامنت الرواية للتراث مع رواية القرآن والحديث الشريف، فتأسس منحى علمي خاص بها، مقرون بالحرص البالغ، والدقة الكاملة، والأمانة في النقل. فلم يصبح للتحريف مجال، طالما تصدّت له مناهج العلماء الرواة، ضامنة للموروث الوثاقة والصحة والمصداقية[1].

تلكم هي أهمية الرواية الشفوية، في مجتمع مؤهل لذلك بالفطرة، ومزود بصفاء الذهن، وحافزية التنافس، على هذا المنحى.

ويظهر أنّ للبيئة التي نشأت في أحضان الدين الجديد دورا في تجسيد الرواية المنقولة وضبطها، ووضع مقاييس علمية دقيقة لفرز الروايات، وتأصيل النصوص. وقد تبنى القرآن الدعوة إلى العلم، والكتابة بالقلم، وفاضل بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأرشد إلى ضرورة استخدام وسائل الإدراك، من سمعٍ وبصرٍ، وعقل وفؤاد، للإيغال في مجالات المعرفة وتحصيلها[2].

وبانتشار الإسلام توسعت النقول، وانتبه العلماء إلى ضرورة تحصين العلم المنقول، بالتصنيف للمروي، وتدوينه بصورة رسمية، تعتمد من العلماء، وتترسى بها آفاق المنهج العلمي في النقل والنقد.

أما رواة الشعر والنثر فكانوا أصحاب مواهب خلاقة، وطباع متوازنة، وأذواق راقية، ودربة متمكنة على حفظ الشعر ونظمه، وتمييز جيده من رديئه، وكان تفاعلهم مع نصوصه تفاعلا غير محدود. فلم تكن المبادرة إليها فضولا ولا ترفا، وإنما فعلا مهما من الشاعر وقومه، ومن متطلبات التعايش الاجتماعي. يروون في المجامع العامرة، والمحافل الرائدة، موروثا أدبيا منقولا بروح عربية صميمة، معتزة بالجذور، والانتماء، والذود عن القبيلة، وقد أذاب الإسلام فيما بعد كثيرا من تلك العصبيات والانحيازات، وبقي منها القليل[3].

ولم تكن الرواية مقتصرة على الشعر وحده، بل تعدته إلى جميع ألوان التراث، فجُمعت اللغة، والحديث، والسِير، والمغازي، وتفسير القرآن، وومضات الإفتاء الفقهي المتفرقة، بواسطة الرواية الشفوية، ثم دونت بعد ذلك بدقة ومنهجية[4].

إذن واكبت رواية اللغة وجمع التراث حركة التدوين، فكان الرواة لا يستقرون على حال، يجوبون البوادي والقفار، ويرحلون إلى الحواضر والمداشر والصحارى، ليجمعوا شتات الرواية، ويأخذوا اللغة من مظانها المأمونة، من أفواه الأعراب، أصحاب السليقة الراسخة، كل ذلك للتمييز بين غثّ الكلام وسمينه.

فأخذ العلماء رواياتهم الدقيقة من أسماء بارزة، من أمثال أبي مهدية، وابن طفيلة، وأبي البيداء، وابن خيرة، وأبي الدّقيش، وأبي الجراح، وأبي الخرقاء، وأبي زياد وغيرهم[5].

---

[1] بتصرف عن: المبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدرس اللساني الحديث، ص47.

[2] المرجع نفسه، ص47.

[3] بتصرف عن: المرجع نفسه، ص48، 49.

[4] المرجع نفسه، ص49.

[5] ينظر: المرجع السابق، ص50.

وقد جمعت اللغة في مراحل ثلاثة[1]، كانت توطئة للمعجم الشامل:

المرحلة الأولى: جمع العرب في أثنائها الألفاظ، لكن من دون منهج أو ضوابط دقيقة. فقد كان الأصمعي وابن أبي اسحق الحضرمي، وأبي عمرو الشيباني، وأبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي، يتوجهون إلى البادية، ومنها يأخذون اللغة على ألسنة الأعراب.

كما اضطلع بهذا كبار العلماء، من لغويي العصر الأول، فقصدوا قبائل بعينها، من أمثال: قيس، وتميم، وهذيل، وكنانة، وطيء.

وحينما تكون اللفظة متداولة عند قبائل عديدة، فإنّ ذلك يزيد من درجة فصاحتها، ووثوق الرواة بها، فإذا وردت مطابقة للقياس النحوي، والقياس الصرفي، كانت أفصح، وكلما كان رواتها من علماء الراوية أكثر، كانت أصحّ من تلك التي يرويها راويةٌ واحد.

المرحلة الثانية: جمعوا فيها الكلمات المتعلقة بالموضوع الواحد، كألفاظ الخيل، أو المطر، أو الأنعام، أو الصحراء، أو النجوم، وغير ذلك مما لا حصر له، ليشكل فيما بعد ما يسمى بمعاجم المعاني.

المرحلة الثالثة: جمعوا فيها جميع ألفاظ العربية، بمنهج علمي دقيق، وبطرق خاصة، وهي مرحلة المعاجم المجنّسة.

أما عبد القادر جليل فرأى أن جمع اللغة مر بمراحل ثلاثة أيضا، لكن بطريقة مختلفة قليلا:

- فالأولى جمعت فيها الكلمات، من دون ترتيب، إلا ترتيب السماع؛
-الثانية، وهي مرحلة التصنيف المعجمي؛
-الثالثة؛ مرحلة التصنيف اللغوي والنحوي والصرفي[2].

بناء المعجم العربي خلال القرون الاثني عشر الهجرية

اقتضى بناء المعجم زمنا فسيحا، وتضافر جهود أجيال من الرواة، والعلماء المحققين، حتى اكتمل بناؤه، بناءً محكما منسجما، حاملا موروثا لغويا عظيما. بدأ بالتجميعات الأولية للتراث اللغوي منذ القرن الأول، بدءا بغريب القرآن ومُشْكِلِه، وغريب سائر الفنون والألوان الأدبية (غريب الحديث وغريب الشعر)، والنوادر من الكلام الفصيح، وجمع بعضهم المذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع، وجمع آخرون أوصاف الإنسان والحيوان، وجعلوا للأنواء تآليفَ، وللنبات، وللحشرات، وللاشتقاق، ولجمع الألفاظ المترادفة، وللمُعرَّب والدخيل، وغيرها.

وهي ذي أسماء بعض المشاركين في بناء المعجم العربي، نوردها بحسب القرون التي ظهرت فيها:

1-القرن الأول الهجري:

-نصر بن عاصم الليثي (ت89 هـ): وله كتاب "ترتيب حروف الهجاء".

-أبو عمرو إسحق ابن مرار الشيباني(ت94هـ): وله مجموعة رسائل منها: "الحروف"-"غريب الحديث"-"النخلة"-"الإبل"-"الخيل"-"النوادر"-"خلق الإنسان".

2-القرن الثاني الهجري:

-أبو مالك عمرو بن كركرة النميري الأعرابي: وله: "خلق الانسان"- "الخيل"- "النوادر".

[1] المرجع نفسه، ص51 ،52.

[2] المرجع نفسه، ص52.

-أبو خيرة الأعرابي العدوي: وله "الحشرات".

-أبو عمرو بن العلاء التميمي (ت154هـ): وله "النوادر".

-الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت170هـ): وله "كتاب العين"-"معاني الحروف"-"النقط والشكل".

-أبو هشام الليث بن المظفر الخراساني(ت180هـ): وله "إتمام العين".

-يونس بن حبيب الضبّي النحوي(ت182هـ): وله "معاني القرآن"-كتاب "اللغات".

-الكسائي أبو الحسن علي بن حمزة الأسدي(ت189هـ): وله: "معاني القرآن"-"المصادر"-"الحروف"-"ما تلحن فيه العامة".

-أبو الحسن النّضر بن شميل التميمي(ت122هـ): وله: "السلاح"-"الصفات"-"غريب الحديث".

3-القرن الثالث الهجري:

-أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ت110هـ): وله: "ما تلحن فيه العامة"- "الانسان"- "الزرع" - "الشوارد"- "معاني القرآن"- "غريب الحديث".

-أبو زكريا يحى بن زياد الدّيلمي المعروف بالفرّاء(ت144هـ): وله: "معاني القرآن"-"اللغات"-"ما تلحن فيه العامة"-"مُشْكَل اللغة"

-أبو الحسن علي بن حازم اللّحياني (ت207 هـ): وله: "النوادر".

-أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري(ت215هـ): وله: "النوادر"-"المطر"-"المياه"-"خلق الإنسان"-"الشجر"-"غريب الأسماء".

-سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط(ت215هـ): وله: "تفسير معاني القرآن"-"الاشتقاق".

ويأتي من بعد هؤلاء: الأصمعي(ت216هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام الهرويّ (ت224هـ)، وأبو مسحل الأعرابي(ت228هـ)، ومحمد بن زياد الأعرابي(ت231هـ)، وأبو نصر الباهلي(ت231هـ)، ويعقوب بن السكيت(ت244هـ)، وأبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي(245هـ)، وأبو حاتم السّحبساني(ت248هـ)، وأبو اسحق الزّيادي(ت249هـ)، وأبو عثمان المازني(ت249هـ)، وأبو عمرو الهروي(ت255هـ)، وابن قتيبة الدّينوري(ت276هـ)، وأبو حنيفة عبد الله بن مسلم الدّينوري(ت282هـ)، وأبو العباس المبرد(ت286هـ)، وأبو العباس ثعلب(ت291هـ).

4-القرن الرابع الهجري:

علي بن الحسن كراع النمل(ت309هـ)، وعلي بن سليمان الأخفش(315هـ)، وعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني(ت320هـ)، ومحمد بن الحسين بن دريد(ت223هـ)، وإبراهيم بن محمد نفطويه(ت324هـ)، ومحمد بن القاسم الأنباري(ت328هـ)، وأبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي(ت337هـ)، وأبو القاسم الزّجاجيّ(ت337هـ)، ومحمد بن عبد الواحد المسمى غلام ثعلب(ت345هـ)، وأحمد بن محمد الخارزنجيّ البستيّ(ت348هـ)، وإسحاق بن إبراهيم الفارابي(ت350هـ)، وأبو الطيب اللغوي(ت351هـ)، وأبو الفرج الأصفهاني(ت356هـ)، وأبو علي القالي(ت356هـ)، وأبو منصور الأزهري(ت370هـ)، وعلي بن حمزة البصريّ(ت375هـ)، وأبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي(ت379هـ)، وأبو أحمد الحسن العسكري(ت382هـ)، وأبو الحسن الرماني(ت384هـ)، والصاحب بن عباد(ت385هـ)، وأبو الفتح

عثمان بن جني(ت392هـ)، وأبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري(ت393هـ)، وأبو الحسين أحمد بن فارس(ت395هـ)، وأبو هلال العسكري(ت395هـ)، ومحمد بن نعيم البرمكي(ت397هـ).

5-القرن الخامس الهجري:

أحمد بن محمد الهروي(ت401هـ)، والخطيب الاسكافي(ت420هـ)، وأبو منصور الثعالبي (ت429هـ)، وتمّام بن غالب بن الثباتي الأندلسي(ت436هـ)، وأبو الحسن بن سيدة(ت458هـ).

6-القرن السادس الهجري:

أبو القاسم الراغب الأصفهاني(ت502هـ)، وأبو زكرياء التبريزي(ت502هـ)، ونشوان بن سعيد الحميريّ(ت516هـ)، وأبو محمد عبد الله بن محمد البطليوسي(ت521هـ)، ومحمد بن يوسف المسمى ابن الأشتركوني(ت538هـ)، وأبو القاسم الزمخشري(ت538هـ)، وأبو منصور الجواليقي(ت540هـ)، وأحمد بن علي البيهقي(ت544هـ)، وأبو البركات الأنصاري(ت577هـ)، وأبو محمد بن بري(ت582هـ).

7-القرن السابع الهجري:

مجد الدين مبارك بن محمد الحريري بن الأثير(ت606هـ)، ومحمد بن نصر الله الشيباني بن الأثير(ت622هـ)، والحسن بن محمد العمري الصّاغاني(ت650هـ)، ومحمد بن أحمد الزّنجاني(ت656هـ)، وزين الدين محمد بن محمد الرّازي (توفي بعد 666هـ)، وأبو عبد الله الشاطبي(ن684هـ).

8-القرن الثامن الهجري:

محمد بن مكرم بن منظور(ت711هـ)، ومحمد بن يوسف الأندلسي المعروف بأبي حيان(ت745هـ)، وأبو العباس أحمد بن محمد المقري الفيومي(ت770هـ).

9-القرن التاسع، والعاشر، والحادي عشر، والثاني عشر:

-التاسع هجري: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي(ت817هـ).

-القرن العاشر للهجرة: جلال الدين السيوطي(ت911هـ).

-القرن الحادي عشر الهجري: شهاب الدين الخفاجي(ت1069هـ).

-القرن الثاني عشر الهجري: مرتضى محمد بن محمد الحسيني الزّبيدي(ت1205هـ).

ملاحظات وتأملات فيما ذُكر[1]:

[1] المبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدرس اللساني الحديث، ص58-

–أول ما يُلاحظ هو التنوع الخلاق بوجود قائمة مزدحمة بالأسماء، والانتاجات المساهمة بفعالية في بناء المعجم العربي وترسيته.

–انطلاق عملية بناء المعجم بصورة مبكرة، حيث بدأت مع نصر بن عاصم الليثي(ت89هـ) في نهاية القرن الأول الهجري (عهد الدولة الأموية). حيث البدايات الأولى لتأسيس المعجم العربي، وبداية التدوين والتأليف والتقعيد. ولعل الدافع إلى ذلك الخوف من ضياع اللسان، بدخول العجمة وشيوع اللحن. وانحصار مجال الفصاحة، في ظل امتزاج الحاضرة والبادية، وكذا امتزاج الشعوب العربية بغيرها، وامتزاج الأعراق، فيتعكر لا محالة صفاء اللسان.

–هناك كثافة في الرسائل الإفرادية، وقد كانت توطئة لبناء المعجم الكامل، وتأليفها يدل على وعي أصحابها بضرورة حفظ التراث مكتوبا، لأنهم تصوروا خطورة ضياعه، وعدم اقتدار الأجيال اللاحقة على بلورة مضامينه، وحفظ متونه، في ظل التغير الطارئ على المجتمع العربي.

–للتأليف في تلك الرسائل الأولى (الطبيعة، والبيئة، والخيل والشاء، والمطر، والطير والوحوش والحشرات، والسحاب والرياح وخلق الإنسان وما سوى ذلك) والربط بينها وبين الواقع المعيشي أهمية كبرى وفاعلية في إرساء المعجم الوظيفي، وتعد جوانبَ غاية في الأهمية في حسن التأسيس، وواقعية التأليف.

–هناك تآليف من الرسائل تهتم باللغات ومعاني القرآن، وغريب الحديث، والاشتقاق، وما تلحن فيه العامة، وما تلحن فيه الخاصة، وإصلاح المنطق، والمذكر والمؤنث، والفصيح، والمجانس، والمنجد، والمنضّد، والمجرد، وغريب اللغة، والتثنية والجمع، وجواهر الألفاظ، ومعاني الحروف، والإبدال، والفروق، والتنبيهات على أغلاط الرواة، وتصحيفات المحدثين، والمختلف والمؤتلف، والمترادف، وأسماء بقايا الأشياء، والمعرّب، وأسرار العربية، وغير ذلك.

وجميع ذلك يخدم اللغة، ويقدم فكرةً على اهتمام أجيال من المؤلفين بمختلف أبواب العربية، نحوا وصرفا وبلاغة ودلالة. وهو سبقٌ منهجي يدلّ على إلمامهم بالمباحث التي تستوعبها العربية وتقتضيها.

–نلاحظ تكرارا لأسماء الكتب لكتاب مختلفين، فقد ألف في الخيل أبو مالك الأعرابي وأبو عمرو الشيباني، والأصمعي. وألف في النوادر أبو عمرو بن العلاء، وأبو عمرو الشيباني، وأبو عبيدة، وابن الأعرابي. وألف في معاني القرآن يونس بن حبيب والفرّاء والأخفش وثعلب. وألف في الإبل أبو عمرو الشيباني، والأصمعي. وألف في غريب القرآن الهروي ونفطويه والأصفهاني والرازي وأبو حيان والشيباني والأنباري، وألف فيما تلحن فيه العامة الكسائي والباهلي والسجستاني والمازني وابن قتيبة الدينوري والزبيدي والجواليقي.

هذا التكرار إنما يدلّ على أهمية هذا الميدان، إذ تعاقب على التأليف فيه اللغويون، كما لا يعني هذا أن المضمون مكرر، بل قد يكون في تأليف اللاحق ما يثري به إنجاز السابق له، توسعة لمجال البحث، وإفادة للمعجم وللغة ككل.

-وببعض تأمل لتلك المعاجم نلحظ تنوعا عند الواحد منهم يطال مجالات لغوية، ونحوية، وصرفية متنوعة، وهو ما يعطي فكرة عن حقول الاهتمام عند علماء اللغة. وعن طول باعهم وتمكنهم من أكثر من مجال، وحسن توظيف اللغة والايغال في مجالات بحثية عديدة.

-هناك علاقة بين الرسائل القديمة ومسار التطور اللغوي، الذي بدأ رواية وانتهى معجما متكاملا، يمثل موردا للعطاء اللغوي الذي احتضنته الأجيال، ووظفته بإيجابية في بناء المعجم، وتنميته، وصيانة المسموع والمقيس، من الأهواء وتغير الأذواق، وتلون الظروف عبر العصور.

-من خلال استقراء النتاج اللغوي والمعجمي خلال اثني عشر قرنا من الزمان، نلاحظ انفساح المعجم اللغوي، خلال قرون متلاحقة للعطاء المتجدد، والذي يتيح للدراسات المعجمية مسايرة العصر الحديث، وأن تستفيدَ من آليات الدراسات المعجمية الحديثة، من ذلك قياس الجديد على المسموع قبلا، واستثماره في الاستعمال وترقية مضامين اللغة.